كتابك

١٦٧

نعمت إسماعيل علام

فنون العراق القديم

دار المعارف

هـذا الكتاب

يلقى الضوء على طبيعة العلاقات الفنية التى سادت منطقة الشرق الأوسط فى العصور القديمة ، ويحيط بفنون الحضارة العراقية من تصوير ونحت وزخرفة . ومدى ارتباطها بمعتقدات هذه المنطقة وبظروفها الطبيعية والبيئة السائدة . .

٢٠ ج

٤٥١٦٩٧ / ٠١

اقرأ ١٦٧

رئيس التحرير أنيس منصور

نعمت إسماعيل علام

فنون العراق القديم

دار المعارف

تمهيد تاريخى
لبداية الحضارة فى بلاد العراق القديم

انتقل إنسان العراق القديم من طور الصيد والترحال إلى طور الاستقرار والزراعة فى فترة العصر الحجرى الحديث ، وبدأ إنسان ذلك العصر يبحث عن المناطق الخصبة فى أودية الأنهار بعد أن تحول من جامع للغذاء إلى منتج له ، وشجعت المظاهر الطبيعية الطيبة التى تميزت بها أراضى وادى الرافدين القبائل المتنقلة على الاستقرار فى مستوطنات بشرية بالقرب من نهرى دجلة والفرات .

وبدأ هذا الإنسان الزارع يستأنس الحيوانات ويستنبت الحبوب ، كما شيد مبانيه الأولى من البوص ، ولما تطورت حياة إنسان العراق القديم بدأ يستوطن قرى شيدت مبانيها من الطين ، كما استخدم الأدوات الحجرية البسيطة ، وصنع أوانى بدائية من الطين .

ولقد انتشرت المستوطنات البشرية الأولى لإنسان العصر الحجرى الحديث فى الجزء الشمالى من بلاد النهرين فى عصر مبكر ، وكشفت الحفريات التى تمت فى العراق حتى اليوم عن مستوطنات صغيرة لإنسان العراق القديم فى بدء حياته الزراعية الأولى ، وأرجع العلماء تاريخ

مستوطنة « جادمو » التى شرق كركوك إلى الألف السابعة قبل الميلاد ، ومستوطنة « حسونة » التى جنوب الموصل إلى الألف السادسة قبل الميلاد ، ومن المحتمل وجود أماكن مماثلة مبعثرة فى الشرق الأوسط ترجع إلى ذلك التاريخ لم يكشف عنها النقاب حتى الآن .

على أننا نلاحظ مرور فترة زمنية طويلة تقرب من ألفى عام قبل ظهور حضارات متصلة فى بلاد النهرين تحمل فى طياتها جذور فنون الشرق الأوسط القديم[١] ، وأطلق على هذه الحضارات أسماء المواقع التى استقرت فيها .

وأقدم هذه الحضارات عثر عليها فى « تل حلاف » على نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات فى المنطقة الشمالية ، ويرجع تاريخ حضارة « تل حلاف » إلى الفترة من ٤٠٠٠ — ٣٥٠٠ ق . م .

وتمتاز آثارها بأوان فخارية متقنة مزخرفة ، بوحدات هندسية وآدمية وحيوانية ؛ كذلك عثر بها على تماثيل صغيرة من الطمى المحروق لأشكال آدمية نسائية ربما ترمز إلى الأمومة .

غير أننا نجد أن الحضارات التالية التى استقرت فى بلاد النهرين قد اختارت الجزء الجنوبى من دلتا الفرات ، وترجع أولى هذه الحضارات النازحة من الشرق إلى النصف الأخير من الألف الرابع ق . م ، ومن

---

(١) ظهرت حضارة معاصرة فى وادى النيل فى نهاية العصر الحجرى الحديث .

المرجح أن هؤلاء النازحين كانوا على صلة بمنطقة علام التى فى الجزء الشرقى لدلتا النهرين .

وعرفت هذه القبائل التى استقرت فى الجنوب بحضارة « العبيد » ، وكان أشهر مراكزها مستوطنة « أريدو » (حاليا أبو شهرين) .

ولقد شيد أصحاب هذه الحضارة مساكن من القصب المغطى بالطين أو بطبقة من الجص ، كما زينوا آثارهم الفخارية برسوم هندسية باللون الأسود ، كذلك عثر بين آثارهم على عدد من الدمى من الطين المحروق تمثل نساء ورجالا .

ولأن هذه التماثيل الصغيرة ليس لها مثيل فى الحضارات الأخرى التى استقرت فى بلاد النهرين – يرجح الباحثون أن حضارة « العبيد » لم تكن امتدادا للحضارات السابقة المستقرة فى البلاد ، بل هى حضارة مستوردة من صنع نازحين جدد أتوا من الهضبة الإيرانية ، واستقروا فى منطقة « العبيد » فقط .

وبالرغم من أن قبائل « العبيد » أظهرت تقدما حضاريا فى العمارة فإن جهودهم توقفت تماما للخراب الذى أصاب البلاد بعد أن أغرق فيضان عال[٢] ، مستوطنات المناطق الجنوبية ، وغطى زراعاتهم

---

(٢) ذكر فى الأساطير السومرية أن ارتفاع هذا الفيضان كان يقرب من أربعة أمتار ؛ كما سجلت الكتب السومرية ثلاثة طوفانات أقل شدة أصابت البلاد بعد ذلك . ويقرن العلماء الطوفان الكبير بالطوفان الذى جاء ذكره فى أسفار موسى .

وخربها ، ويرجع تاريخ هذا الفيضان إلى الفترة من ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م .

على أن رواسب الفيضان الكبيرة الذى غطى البلاد قد ساعد على زيادة خصب الأرض ؛ مما شجع نازحين جددا على الهجرة إلى الجزء الجنوبى من دلتا الفرات للاستقرار فى الأراضى الصالحة للزراعة . ولقد عرفت هذه الحضارة التى ساعدت فى زيادة السكان والاهتمام بزراعة الأرض باسم حضارة « أوروك » ، وكان مركزها مدينة « الوركاء » التى شمال مدينة « العبيد » على نهر الفرات .

على أننا نلاحظ أن هذه الحضارة قد انتشرت فى جميع مناطق بلاد النهرين ، وحلت محل الحضارات السابقة . وتعتبر القبائل التى هاجرت إلى المنطقة الجنوبية بعد انحسار الفيضان ، واختلطت بما تبقى من القبائل - أكثر تقدما من حضارة « العبيد » السابقة ؛ كما تميزت بعمارة متطورة ومعرفة بالمعادن .

ومن المرجح أنه قد تسرب بين هذه القبائل التى كونت حضارة « أوروك » جماعات نزحت من الشرق من الجبال التى شمال منطقة علام ، واستقرت هذه القبائل بعد ذلك فى الجزء الجنوبى الذى عرف باسم (سومر) . ولقد تميزت هذه المنطقة بتطور سريع فى الخطوات الحضارية بفضل النازحين الجدد الذين عرفوا باسم السومريين .

ويستمر تأثير حضارة الوركاء[٣] فى الحضارة التالية التى عرفت باسم « جمدت نصر » ، وكانت هذه المرحلة قصيرة واختتمت المراحل البدائية السومرية ، وكان من نتيجة التقدم الحضارى الكبير الذى أدخله النازحون الجدد فى منطقة سومر أن تمكن السومريون البدائيون من اختراع الكتابة بعد عام ٣٠٠٠ ق . م فى أواخر مرحلة « جمدت نصر » .

وبعد أن نجح السومريون فى الدخول فى العصور التاريخية نجد أنهم حكموا البلاد فى فترتين زمنيتين مختلفتين تخللها حكم من سلالة سامية .

ومن الواضح أن التاريخ قد سجل عددا من الهجرات إلى أراضى بلاد النهرين . ومن الشعوب التى هاجرت إلى المنطقة الشمالية من دلتا الفرات قبائل يرجع أصولها إلى الجنس السامى ، هاجرت من شبه الجزيرة العربية ، واستقرت فى الجزء الشمالى من بلاد سومر فى تاريخ لاحق لهجرة السومريين ، وتعايشتا معاً وتعاونتا معا فى استثمار الأراضى الخصبة .

وعرفت أولى الطلائع السامية باسم « الأكاديون » ، وكان هذان الجنسان مختلفين من ناحية اللغة والشكل ، وربما كان كل شعب منهما

(٣) جاء ذكر هذه المدينة التى كانت مركز حضارة أوروك فى الكتب المقدسة باسم « إريك » .

يعيش بعيدا عن الآخر فى أول الأمر إلا أن الاحتياجات الاقتصادية جعلتهما بمرور الزمن يختلطان ويعيشان جنبا إلى جنب. فاستفاد الأكاديون من حضارة السومريين وفنونهم كما كان للديانة السومرية تأثير فى الديانة السامية. ونجح الأكاديون فى الاستيلاء على حكم البلاد فى عام ٢٣٥٠ ق. م ، ووحدوا منطقتى سومر وأكاد واتخذوا مدينة أكاد عاصمة لهم.

وعرفت المنطقة التى شمال سومر بعد ذلك باسم بلاد « بابل » حين تمكن « العموريون » الساميون من طرد السومريين فى الفترة الثانية لحكمهم وتمكنوا بزعامة حامورابى من تدعيم وحدة البلاد فى عام ١٧٥٤ ق. م واتخذوا مدينة بابل على نهر الفرات عاصمة لهم.

أما القبائل التى كانت مستقرة فى الجزء الشمالى من نهر دجلة تحت حكم العهود السابق ذكرها فعرفت باسم الأشوريين(٤). وتمكنت هذه القبائل من السيطرة على بلاد النهرين فى عام ١٢٠٠ ق. م. وتأسست الدولة الآشورية ، وكانت أولى عواصمهم مدينة آشور.

وتمكن البابليون مرة ثانية من القضاء على الدولة الآشورية فى عام ٦٠٩ ق. م بزعامة « بختنصر » ، وامتد نفوذ مملكة الدولة البابلية

---

(٤) هناك شبه إجماع بين الباحثين على أن الآشوريين لا يرجع نسبهم إلى الجنس السامى.

الجديدة خارج حدود بلاد النهرين إلا أن هذه العظمة اضمحلت فى أواخر عهد الدولة ، فتمكن الفرس من غزو بابل فى عام ٥٣٩ ق . م .

ومن الملاحظ أن فنون هذه الجماعات التى استقرت فى بلاد النهرين كانت مختلفة فى عهود الدول الحاكمة ، وساعدت على هذا الاختلاف الفلسفة الاجتماعية والمعتقدات الدينية التى انفرد بها كل منهم .

نشأة الفن السومرى

بدأ ظهور التقدم الحضارى فى بلاد النهرين فى الجزء الجنوبى من دلتا الفرات . وكان ذلك فى منطقة « العبيد » التى تميزت أراضيها بالخصب . ولأن النازحين الأوائل كانوا زارعين - نجد أنهم كانوا على علم باستنبات البذور وتربية الماشية ؛ كما تدل مخلفاتهم على أنهم قد وضعوا الأسس التى ساعدت على نشأة الفن فى بلاد النهرين .

وبدت المساهمة الأولى لأهل « العبيد » فى إرساء دعائم الفنون فى ميدان فن المعمار الذى أرسوا أسسه فى بلاد النهرين : فهذه المنطقة لم تتوافر فيها الحجارة والأخشاب ؛ لذلك نجد أن الأهالى استخدموا الطين وأعواد البوص فى تشييد مآويهم . ولما أتى النازحون الجدد إلى المنطقة نجد أنهم جلبوا معهم معرفة عمل قوالب من الطمى . وتدل الآثار التى عثر عليها فى بلدة « أريدو » على أن أهل « العبيد » قد استخدموا هذه القوالب فى تشييد معابدهم .

وبالرغم من قلة الآثار المعمارية التى عثر عليها من تلك الفترة فإن كثيرا من الباحثين يؤمن بأن الاكتشافات التى توصل إليها أهل « العبيّد » فى استخدام الموارد الطبيعية - قبل أن يفرقهم الطوفان - قد مهدت الطريق

إلى استخدام العناصر المعمارية الخالدة : العمود والعقد والقبو والقبة فى بلاد النهرين .

ولقد استخدم أهل « العبيّد » الطمى أيضا فى عمل تماثيل صغيرة من الفخار المحروق ، وتصور هذه التماثيل نساء ورجالا بأجسام رفيعة وأكتاف عريضة ورءوس ذات شكل غير آدمى . (ش ١) .

على أننا نلاحظ أن القبائل الشمالية التى نزحت إلى الجنوب بعد انحسار الفيضان ، وكونت مع من تبقى من أهل البلاد حضارة « أوروك » ، كانت أكثر حضارة من أهل « العبيد » . حيث استبدلت بعمل الأوانى الفخارية المستوحاة من السلال أوانى متقنة ملونة بلون واحد .

وتوحى آثار هؤلاء النازحين الجدد بأنهم كانوا على علم باستخدام العجلة فى صناعة أوانيهم الفخارية . ولما كانوا على قدر وافر من الحضارة — تمكنوا بعد فترة من استخدام العجلة فى عمل العربات التى تجرها الثيران أو الحمير ، كما أجادوا صناعة المعادن التى كانت لهم فى الظاهر معرفة بها من قبل .

وتميزت حضارة « جمدت نصر » آخر الحضارات البدائية بأوان حجرية نقشت سطوحها الخارجية بوحدات بارزة تمثل حيوانات أو نباتات ، كما تنتشر الموضوعات الدينية فى زخارف الأختام الأسطوانية . على أننا نلاحظ أن الذوق الفنى فى تلك الفترة يقل عن



(شكل ١) تمثالان من الطمى المحروق - عصر العبيد - (متحف العراق)

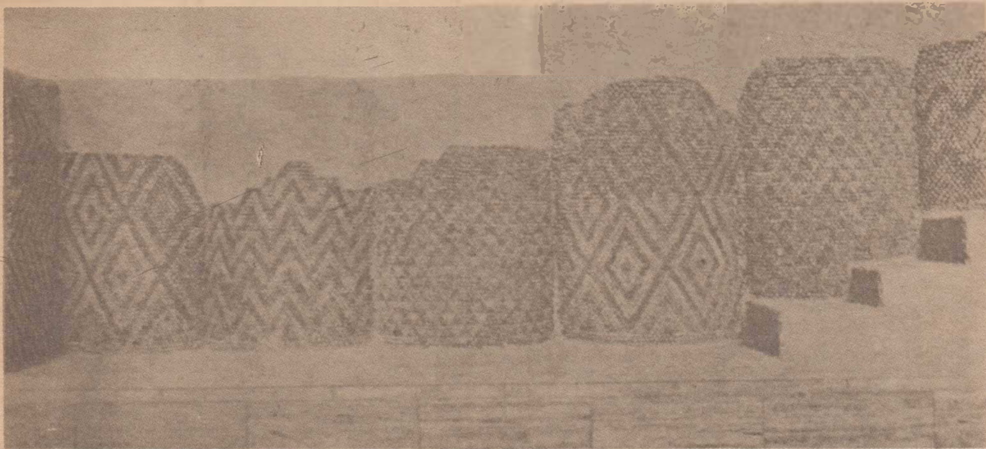
الفترة السابقة ، حيث يغالى الفنان فى استخدام الزخارف البارزة من الإناء ، فيفسد شكله الخارجى !

ومع نمو المجتمع الزراعى فى دلتا الفرات ظهرت الحاجة إلى الاهتمام بالمعتقدات الدينية ، فقدس السومريون قوى الطبيعة ، ورمزوا لكل منها بإله يسيطر عليها ؛ كما آمنوا بأن كل مدينة يملكها إله ! ، وأن الإنسان قد خلق لخدمته !

لذلك نلاحظ أن العمارة فى بلاد سومر قد انحصرت بالدرجة الأولى فى المبانى الدينية ، وصار بناء المعبد أهم حدث فى حياة الشعب السومرى . وكان المعبد يشيد فى وسط المدينة ، وعلى كل مدينة أن تتخير إلها خاصا بها مسئولا عن رخائها وحمايتها ! ولما كان الإله — فى معتقداتهم — ينيب عنه حاكم المدينة أو ملكها فى تصريف أمور الدولة — فلذلك كانت الزعامة الدينية فى يد الحاكم السومرى .

ومن أقدم المعابد السومرية المعبد الأبيض الذى شيد للإله « أنو » فى مدينة الوركاء فى العصور السومرية البدائية .

والظاهر أن السومريين كانوا يرغبون فى أن تشاهد معابدهم من مسافات بعيدة ، فأقاموها على مصاطب عالية ، ويؤيد ذلك الهضبة الصناعية العالية التى يقف عليها المعبد حيث يبلغ ارتفاعها حوالى ١٢ مترا . وعرفت هذه المصطبة التى تحمل المعبد باسم « الزقورة » وكانت مقدسة عند السومريين !



(شكل ٢) نماذج من جدران فى المعبد السومرى مغطاة بقطع من الحجارة الملونة

ويتضح من الآثار التى عثر عليها فى هذه المنطقة أن السومريين الأوائل كانوا على قدر من المدنية مكنتهم من ابتكار أسلوب زخرفى ملون لكسوة أجزاء من جدران معابدهم التى يظهر مثال منها فى معبد بمدينة الوركاء . (ش ٢) .

ولقد تمكن السومريون من الوصول إلى هدفهم ، بتغطية الجدار بطبقة من الطين المخلوط بالجير ، ثم تثبت فى هذه الطبقة صفوف من مخروطات من الطين المجفف فى الشمس غطيت نهايتها بالألوان الأبيض والأسود والأحمر . ويكون ذلك ما يعرف حاليا بفن الفسيفساء . ويلاحظ فى هذه التصميمات انسجام هندسى جميل بين الألوان الثلاثة .

وتحتوى هذه المعابد على أوان حجرية خاصة بالطقوس الدينية ، ومن أجملها إناء أسطوانى من الألبستر عثر عليه فى هيكل الإلهة إنانا (٥) . سيدة السماء فى معبد بمدينة الوركاء ، وتزخرف سطح الإناء نقوش مصورة مرتبطة بالأحداث الدينية .

وبالرغم من أن هذه المعابد الأولى لم يعثر فيها على تماثيل للآلهة فإن حفريات مدينة الوركاء قد كشفت عن رأس امرأة من الرخام (ش ٣) ، لا يعرف حتى الآن : هل تمثل إحدى الهتهم أو لا ؟ غير أن

---

(٥) عرفت ربة السماء عند الساميين الذين سكنوا بلاد النهرين باسم « عشتار » وكانت فى العهود التالية مسئولة عن الحرب وعن الحب .



(شكل ٣) رأس من الرخام الأبيض لامرأة عثر عليه فى مدينة الوركاء (متحف العراق)

التعبير الذى يوحى بالوقار والعظمة الذى على الوجه يحمل بعض العلماء على الظن بأنها ترمز لإحدى آلهتهم .

وتعتبر هذه القطعة الفنية من أحسن أعمال النحت السومرى فى عهد ما قبل الأسرات ، كما تؤذن بظهور الطابع المميز لفن النحت السومرى الذى يتمثل فى التقاء الحواجب المستديرة عند الأنف ، وفى الأعين المبالغ فى إتساعها .

ومن الفنون التى تميز بها العصر السومرى البدائى – أختام أسطوانية الشكل نقشت سطوحها بموضوعات متنوعة . وكانت هذه الأختام تطبع على ألواح من الطين المندى أو على الأشياء الخاصة لتوضيح الملكية الفردية ، وكثرت صور الحيوانات فى بادئ الأمر ، وكانت توضع فى صفوف أو توضع متماثلة حول محور واحد .

كذلك حوت بعض هذه الأختام رسوما آدمية وصل الفنان فى رسمها إلى درجة كبيرة من الدقة .

ولقد أظهرت الحفريات التى تمت فى جزيرة فيلكة بالكويت على وجود صلات بينها وبين بلاد النهرين ، حيث عثر على أختام أسطوانية منقوشة بنقوش مصورة تشبه كثيرا الأختام السومرية .

ومن المحتمل وجود صلات بين مصر وبلاد الرافدين فى نهاية الفترات البدائية حيث ظهرت وحدات متشابهة فى آثار كل من القطرين ، كما اخترعت الكتابة أيضا فى الوقت نفسه بكل من مصر وسومر .

الفن السومرى فى عصر الأسرات

لم يكن الشعب السومرى شعبا متحدا تحت حكم موحد فى العصور البدائية حيث نجد أنهم كونوا ولايات محلية يرأس كلا منها حاكم . وميز السومريون فى كتاباتهم بين ملوك حكموا قبل الطوفان الذى قررته الآلهة لهلاك البشر وبين ملوك حكموا بعد الطوفان . وكانت كل ولاية تسعى للسيطرة على الأخرى ، وكانت مراكز أهم الولايات هى أور وأريدو وأوروك ولارسا ولاكاش وكيش . وأوما .

وفى أواخر العصور البدائية تمكن حاكم مدينة « أور » القوية من السيطرة على بعض هذه الولايات المتفرقة وكون الأسرة الأولى فى حوالى عام ٢٦٠٠ ق . م على أن حكم السومريين زال فى أواخر عصر الأسرة الثانية بسبب المنازعات بين حكام الولايات السومرية ؛ مما نتج عنه استيلاء الجنس السامى الذى فى بلاد النهرين على الحكم وتكوين الدولة الأكادية .

غير أن السومريين تمكنوا مرة أخرى من استعادة قوتهم بعد سقوط الدولة الأكادية ، فتكون فى البلاد حكم سومرى آخر تحت زعامة ملوك أور ، كما وجد حكم مستقل فى « لاكاش « تحت زعامة « جوديا »

* * *

سيطرت المعتقدات الدينية على حياة السومريين فى العصور التاريخية مثلما كانت الحال فى العصور البدائية : فكان المعبد يشيد لإله المدينة الذى كان مسئولا عن حمايتها . ويوكل الإله حاكم المدينة فى تصريف أمور الشعب ! .

ولأهمية هذا الحدث عند الحاكم نجد أنه كان يشارك الأهالى فى تشييد معبد المدينة . ويوضح هذه المشاركة لوح من الحجر منقوش بسرد قصصى خاص بالحاكم « أورنينا » (ش ٤) ، فترى الملك يحمل فوق رأسه مقطفا به المواد المستخدمة فى عملية بناء المعبد ويشاركه فى هذا الشرف أفراد عائلته ! ويظهر الملك مرة أخرى فى الجزء الأسفل من اللوحة جالسا مع عائلته يحتفل بالمناسبة المقدسة .

وبدراسة هذه اللوحة نلاحظ أن النقش البارز لا يدل على وجود نحاتين مهرة فى سومر فى عهد الأسرات الأولى كما نلاحظ أن الحاكم قد نقش بحجم أكبر من المحيطين به مثلما كان متبعا فى مصر فى الدولة القديمة .

وبعد أن تتم عملية التشييد يصير للمعبد دور رئيسى فى اقتصاد السومريين ، فكان المعبد يملك كل شىء ، ويدبر كل الأمور ، وعليه تقديم البذور والحيوانات اللازمة للزراعة ؛ لذلك كان لكل معبد موظفوه المشرفون عليه ! .

وفى عهد الملك « أورنامو » معيد مجد السومريين فى الفترة الثانية



(شكل ٤) لوحة حجرية خاصة بالملك
أورنينا وبها نقوش تصور اشتراكه فى بناء معبد
المدينة (متحف بغداد)

كثر عدد المصاطب التى تحمل المعبد ، وبذلك ارتفع المعبد ارتفاعا كبيرا لم يعرف من قبل فى بلاد النهرين وأعطى هذا الارتفاع المعبد شكلا ضخما تمكن رؤيته من جميع أنحاء المدينة .

ويوضح ذلك الزقورة التى تحمل المعبد الذى شيده « أورنامو » لإله القمر نانار وتظهر بالوجهة الشمالية الشرقية ثلاثة صفوف من الدرج توصل إلى سطح المصطبة الأولى ، ثم يستمر الدرج الأوسط إلى أعلى ليصل إلى سطح المصطبة الثانية : أما المصطبة الثالثة التى يفترض وجودها فلا أثر لها ، وكانت المصاطب فى تلك الفترة تشيد من اللبن أو الآجر أو بكليهما .

ولما كان كل فرد فى المجتمع السومرى ينتمى إلى أحد المعابد ، نجد لذلك أن كبار رجال الدولة وأعضاء الأسرة الحاكمة يكلفون المثالين عمل تماثيل لهم ؛ لتوضع فى ساحة المعبد مع الإله ؛ لتؤدى فروض الطاعة فى حالة تغيب صاحبها عن المعبد .

ولقد زودتنا هذه التماثيل بمعلومات عن أشكال السومريين وزيهم فى بداية العصور التاريخية وفى العصر السومرى الثانى :

فمن بداية حكم الأسرات عثر على اثنى عشر تمثالا (٦) من الحجر

(٦) يميل الدكتور هنرى فرانكفورت الذى اكتشف هذه التماثيل إلى الاعتقاد بأن التمثالين الكبيرين يمثلان الملك والملكة ، أما بقية التماثيل فتصور كبار رجال الدولة ، على أن بعض العلماء يعتقد أنهما يمثلان الإله أبو وزوجته .



(شكل ٥) تماثيل من الحجر عثر عليها فى معبد الإله أبو عبينة تل أسمر

الموصلى فى معبد الإلة « آبو » بمدينة تل أسمر (ش ٥) .

ومما يرجح أن الغرض من نحتها كان دينيا فقط – أن جميع هذه التماثيل تشترك فى وضع واقف مشدود خال من الحركة على حين وضعت الأيدى على الصدر علامة الاحترام ، وتشترك الوجوه كلها فى نظرة ساذجة من أعين مستديرة متسعة الحدقة مبالغ فى حجمها ، وتساعد الأحجار الملونة التى تملأ تجويف العين على التعبير عن شدة الانتباه للآلهة .

على أن دراسة هذه التماثيل لا توحى بوجود مهارة لدى نحات هذه الفترة الأولى ، فهى بدائية الطابع ذات نسب غير صحيحة ، ولقد استوحى الفنان الأسطوانة والمخروط فى عمل تماثيله ، ولا يبدى الفنان فى هذه المجموعة أى اهتمام بتوضيح الجسد البشرى من خلال الزى .

ونلاحظ من دراسة هذه التماثيل أن معظم السومريين كانوا يرسلون شعورهم ولحاهم ؛ كما كانوا يرتدون زيا طويلا مصنوعا من جلد الحيوان أو من خصل الصوف (ش ٦) .

وبطبيعة الحال استمرت سيطرة الناحية الدينية على فن النحت فى العصر السومرى الثانى ، وكانت التماثيل إما واقفة متعبدة أو جالسة . ويوضح ذلك تمثال الحاكم « جوديا » (ش ٧) الذى أشرف بنفسه على بناء المعبد فى عاصمته « لاكاش » فنجد الملك جالسا وفوق ركبتيه لوحة بها تصميم المعبد .



(شكل ٦) تمثال من الحجر لرجل من مدينة ماري (متحف العراق)



(شكل ٧) تمثال الحاكم السومرى جوديا صنع من حجر الديوريت (متحف العراق)

ونلاحظ فى هذا التمثال تقدما فنيا واضحا فى فن النحت فى العهد السومرى (الثانى) حيث تمكن الفنان من إبراز عضلات الملك المكشوفة ؛ وكذلك وضح الثنايا التى فى نسيج ردائه بالرغم من صلابة مادة الديوريت المصنوع منها التمثال ؛ كذلك نلاحظ فى هذا التمثال التقدم الحضارى الذى وصل إليه السومريون فى تلك الفترة ، حيث استخدموا ملابس مصنوعة من نسيج مغزول بدلا من جلود الأغنام أو فرائها !

ومن الجدير بالملاحظة أن التماثيل النسائية كانت قليلة فى الفن السومرى ، وربما يرجع ذلك إلى أن الرجال فى المجتمع السومرى هم الذين يشغلون المناصب الرئيسة فى البلاد . وكانت التماثيل التى فى معبد المدينة تصور كبار رجال الدولة وأعضاء الأسرة الحاكمة .

ومن التماثيل النسائية القليلة تمثال متعبدة عثر عليه فى مدينة خفاجا ويغطى جسدها عباءة مصنوعة من خصل الصوف .

ومن التماثيل النسائية القليلة التى عثر عليها فى معبد اشتار بمدينة مارى تمثال المغنية « أورنانش » (ش ٨) رئيسة جوقة المغنيين فى المعبد . وكانت « أورنانش » تشترك بأغانيها فى الاحتفالات الدينية التى تقام داخل المعبد . ومن الواضح أنها ترتدى سروالا واسعا لترقص به بمصاحبة أغانيها . وكانت العازفات فى المجتمع السومرى تشارك فى الاحتفالات الدينية التى تقام فى المعابد ووجدت فى الآثار السومرية نقوش تصور عازفات على آلات موسيقية كالقيثارة والمزمار والطبل .



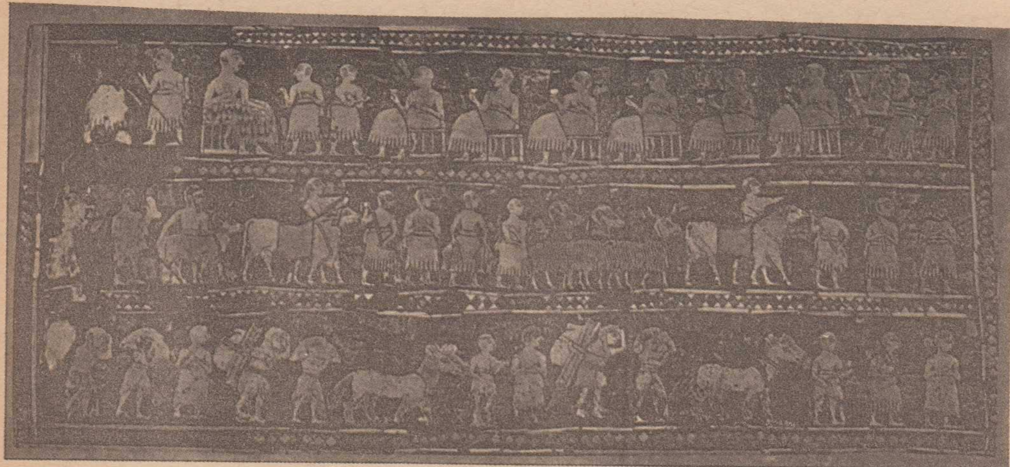
(شكل ٨) تمثال من الحجر لرئيسة الفرقة الموسيقية الخاصة بمعبد
مدينة مارى وتعرف باسم أورنانس (متحف العراق)

وتلقى الصور المنقوشة على مخلفات السومريين ضوءا على الأحداث الهامة التى ترتبط بحياتهم وما كانت عليه معتقداتهم ، ولقد استخدم السومريون طرقا مختلفة لتسجيل هذا السرد القصصى :

فبالإضافة إلى النقوش البارزة على الألواح الحجرية نجد أنهم انفردوا عن شعوب العالم القديم بأسلوب مبتكر فى تكوين مناظر مصورة من أشكال منحوتة من العاج والصدف. وكانت هذه الأشكال المنحوتة تثبت على سطح خشبى مغطى بالقار ؛ لتكون السرد القصصى المطلوب .

ومن أشهر هذه الأعمال (لوحة) « أور » (ش ٩) التى تسجل من الجهتين صورا من حياة السومريين . فتصور الجهة الأولى موضوع الحروب على حين تصور الجهة الأخرى الاحتفال بالنصر. ويظهر الموضوع الأول مصورا فى ثلاثة أسطر أفقية ، فتلاحظ فى الصفين الأول والثانى الحاكم وقواده يستعرضون الأسرى : فالحاكم مصور بحجم أكبر من المرافقين وقد ترك عربته ليستعرض الأسرى ! وترى فى الصف الثالث عربات الجيش المنتصر تمر فوق جثث الأعداء ! .

ويوضح الوجه الآخر للوحة الاحتفال بالنصر مسجلا فى ثلاثة صفوف أيضا : فيجلس الحاكم وأمامه كبار رجال الدولة يشربون نخب الانتصار . وتحيى الحفلة مغنية بمصاحبة لاعب قيثارة وضعهما الفنان فى أقصى اليمين ، وتظهر فى الصفين التاليين الغنائم التى استولى عليها الجيش !



(شكل ٩) لوحة أور ، وجه لوحة خشبية مغطاة بالقار ومثبت بها
أشكال الكائنات المنحوتة فى صفوف (المتحف البريطانى)

ومن الملاحظ أن التصميم فى هذه اللوحة أكثر وضوحا من المناظر المماثلة المنقوشة على الألواح الحجرية ؛ إذ أعطت طريقة تثبيت الكائنات الحية على السطح الفنان فرصه أكبر فى توزيع شخصياته على اللوحة ؛ كما أن خامة الصدف تتطلب عناية ودقة من الفنان فى نحت أشكاله .

وبالرغم من ندرة وجود النحاس فى بلاد سومر فإنه عثر على تماثيل معدنية صغيرة فى المعابد السومرية تحمل فوق أوان . ومن أجمل هذه الأمثلة قطعة عثر عليها فى معبد « تل أغرب » مشكلة على هيئة مصارعين فى حركات عنيفة . والظاهر أن هذه التماثيل كانت تصنع لأغراض دينية ، فتوضع البخور فيها فى الاحتفالات الدينية .

وفى المكان نفسه عثر على نموذج لعربة من النحاس يجرها زوجان من الحيوانات وتوضح هذه القطعة شكل العربات التى كان يستخدمها السومريون ، كما يثبت وجودها أن السومريين كانوا أول من استخدم هذا النوع من العربات فى الحروب .

وبالإضافة إلى الأعمال الفنية التى أمدتنا بها المعابد السومرية — نجد أن اعتقاد السومريين فى حياة ما بعد الموت جعلتهم يحرصون على تزويد مقابر حكامهم بحاجاتهم الشخصية . وأحسن ما وجد من هذه الآثار عثر عليه فى المقابر الملكية لمدينة « أور » التى كشف عنها الأستاذ (٧) « وولى »

(٧) عثر الأستاذ « ل . دولى » عام ١٩٢٢ على أربعمائة وخمسين مقبرة تحت الأرض ذات أسقف مقوسة ، ويخص بعضها ملوك مدينة أور ؛ واستؤنفت عمليات التنقيب عام ١٩٢٧ .



(شكل ١٠) لوحة حجرية خاصة بالملك إينا توم (متحف اللوفر)

حيث عثر فيها على مشغولات ذهبية توضح مقدرة الفنان السومرى فى صياغة المعادن .

وتمدنا مقبرة الملكة « شوباد » بأكبر مجموعة من المشغولات المعدنية حيث عثر فيها على مصوغ وأوان وأقداح شراب ذهبية تدل صياغتها على ازدهار حضارة السومريين فى وقت مبكر ، كذلك عثر بالمقبرة على حلية لجام معدنية مشكلة على هيئة حلقة من الفضة مثبت بها تمثال صغير لبغل مصنوع من معدن الإلكترم .

وتوضح خوذة الملك مسكلام دج الذهبية التى عثر عليها فى مقبرته قمة المهارة التى وصل إليها الفنان السومرى فى تسجيل التفاصيل الدقيقة لشكل الرأسى السومرى على الخوذة الذهبية . وتعتبر هذه الخوذة أقدم محاولة للإنسان فى صنع غطاء للرأس من المعدن لحمايته من التعرض للإصابة فى الحروب .

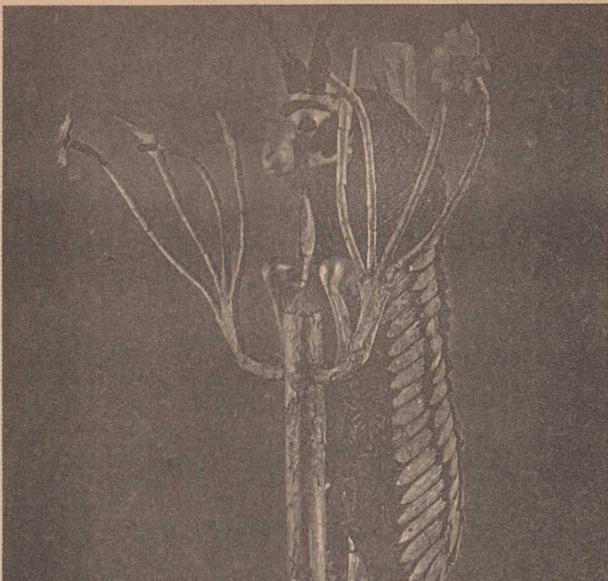
ويوضح استخدام الجنود السومريين وحاكمهم للخوذة لوحة حجرية عثر عليها فى « تللو » (ش ١٠) وترجع إلى العصر السومرى الثانى . وتصور هذه اللوحة الملك « إيناتوم » يقود جيشه . ويرتدى الجميع خوذة مثبتة فى الزى الخارجى للجنود . وتوضح انتصار الملك وجثث الأعداء المنقوشة تحت أقدام الجنود !

ومن القطع الفنية الفريدة التى عثر عليها فى مقابر ملوك السومريين تمثال صغير لحيوان خرافى على هيئة جدى مجنح ؛ ويرتكز الجدى بأطرافه

الأمامية على شجرة مزهرة مصنوعة من الذهب (ش ١١) وبدراسة هذا التمثال نلاحظ أن الفنان قد استخدم عدة خامات فى عمل واحد ؛ فالرأس والأرجل من الذهب على حين صنعت الأجنحة من الصدف واللازورد . وكان الجدى يرمز أحيانا للإله « تاموز » كما ترمز الشجرة إلى شجرة الحياة المقدسة .

وفكرة مزج عناصر مختلفة فى كائن واحد كانت منتشرة فى الأساطير السومرية ، وظهرت هذه الكائنات فى الفنون السومرية ، ومن أجمل هذه الأمثلة آلات وترية عثر عليها فى المقابر الملكية ، وينتهى جسم الإله الخشبى بقمة مشكلة على هيئة رأس ثور من الذهب له لحية سوداء.

وتظهر الحيوانات الخرافية فى الزخارف الصدفية المطعمة على الجزء الأمامى من الآلة الموسيقية (ش ١٢) فنشاهد فى الإطار العلوى البطل الأسطورى جلجامش يحتضن زوجا من ثيران برءوس آدمية ملتحية ، وتظهر فى السطور الأخرى أنواع متعددة من الحيوانات تمشى على أرجلها الخلفية ، وتقوم بالأعمال التى يمارسها الآدميون .



(شكل ١١) تمثال صغير مجنح صنع من الذهب والصدف وحجر اللازورد (المتحف البريطانى)



(شكل ١٢) زخارف من الصدف والعاج على السطح الأمامى لآلة موسيقية (متحف العراق)

أكاد

عندما تزايد عدد المهاجرين من الجنس السامى إلى بلاد النهرين — ظهرت لهم تجمعات فى بعض المدن التى شمالى الإقليم السومرى ؛ كما تولوا مناصب هامة فى الولايات المتحدة السومرية . وانتهز زعيم قوى منهم فرصة ضعف الحكم السومرى الأول نتيجةللمنازعات التى قامت بينهم . فأطاح بالحكم السومرى الأول ، وأنشأ الملك « سارجون » عاصمة فى الشمال عرفت باسم « أكاد » . وأسس أول إمبراطورية سامية فى بلاد النهرين ، وضمت إليه مدينتى آشور « ومارى » فى الشمال .

° ° °

على أننا نلاحظ أن الشعب الأكادى استمد حضارته من الحضارة السومرية ، وذلك للفترة الطويلة التى تعايشوا فيها والسومريون . وأخذت الآلهة السومرية أسماء جديدة ، فحلت « إشتار » مكان الآله « إنانا » . وأخذ « سن » مكان تانار إله القمر ، كما تحول أو ثابار إلى شماش إله الشمس ، وكتب الأكاديون لغتهم السامية بالحروف المسمارية السومرية . كذلك اقتبسوا من فنونهم مع بعض التطوير .

ويظهر تحول واضح فى الفن منذ فترة إنشاء « سارجون » لدولته

السامية ، حيث يتجه الفن إلى تخليد الناحية الدنيوية ، وتؤيد ذلك الأعمال الفنية القليلة المبعثرة التى عثر عليها فى مناطق أخرى انتقلت إليها كغنيمة فى أثناء الحروب التى جرت فى بلاد النهرين .

ويوضح هذا التحول رأس من البرنز (ش ١٣) عثر عليه فى مدينة « نينوى » الآشورية تتميز صناعته بدرجة كبيرة من الجودة ، وبالرغم من عدم معرفتنا بشخصية صاحبه فإن المنقبين والباحثين متفقون على أنه يخص الملك سارجون المؤسس لأول إمبراطورية سامية فى بلاد النهرين . وشجعهم على هذا الاعتقاد طابع الهيبة والعظمة المنعكسين على الرأس البرونزى .

ويظهر استمرار الطابع السومرى فى العصر الأكادى فى التقاء الحواجب المقدسة فوق الأنف ، كذلك فى شكل غطاء الرأس الذى يذكرنا بخوذة الملك « مسكلام دج » السومرى . على أننا نلاحظ اختلاف أهداف فن النحت فى الدولتين : ففى العصر الأكادى اهتم الفنان بإظهار شخصية الحاكم الذى يتسم وجهه بالقوة والزعامة ، فى حين أن هدف الفنان السومرى اقتصر على توضيح حالة التعبد فى تماثيله ، فتظهر على الوجوه مسحة من البساطة والانتباه للآلهة .

ومن الآثار الأكادية القليلة التى توضح تخليد الناحية الدنيوية فى الفن الأكادى — لوحة من الحجر عثر عليها فى مدينة « سوسا » منقوشة بنقوش بارزة تسجل انتصار الملك « نارمسن » حفيد « سارجون » — على



(شكل ١٣) رأس من البرنز للملك سارجون الأكادى (متحف بغداد)

أعدائه (ش ١٤) ويعتبر هذا الأثر أول (لوحة) تذكارية فى بلاد النهرين تسجل عليها الأحداث فى مساحة متسعة.

سجل الفنان قصة انتصار الملك الأكادى فى مساحة كبيرة، ووزع الأشخاص فيها بأسلوب مبتكر، ونقش صورة الملك نارمسن يتقدم جيوشه فى منطقة جبلية بها أشجار، وأوضح المنطقة الجبلية بخطوط مائلة منحدرة، ويرتدى الملك فوق رأسه خوذة ذات قرنين[٨]. ويلاحظ أن الملك رسم بحجم أكبر من جنوده وفى مستوى أعلى منهم، ولا يعلو عليه إلا قمة الجبل والكواكب، ومثل الجبل بشكل مخروطى. وتوضح الانتصار جثث الأعداء المنقوشة تحت أقدام الملك.

وتتقدم صناعة الأختام الأسطوانية فى العصر الأكادى، ويستمر ظهور الموضوعات المفضلة عند السومريين، فتظهر أشكال الآلهة السومرية وأبطال الأساطير الخيالية.

ومن أطرف هذه الموضوعات قصة «إيتانا» الذى أصاب العقم أغنامه، فصعد إلى السماء على ظهر نسر باحثا متسائلا عن سر الحياة (ش ١٥) وتنظر المخلوقات التى على الأرض بدهشة إلى «إيتانا» الذى يطير فى السماء!

---

(٨) ظهرت الآلهة على الأختام الأكادية مرتدية تاجا مماثلا ذا قرنين.



(شكل ١٤) لوحة النصر - تصور انتصار الملك نارامسن على الأعداء (متحف اللوفر)

ومع أن موضوع الأسطورة منقوش على مساحة صغيرة (٤ سم × ٧ سم) فإن جودة النقش واضحة فى كل جزء من رسوم الكائنات .

ويوضح ختم آخر شخصيات الآلهة فى موضوع دينى فنرى الكهنة يسكبون السائل المقدس أمام إلهة الجو .



(شكل ١٥) ختم أسطوانى أكادى مسجل عليه أسطورة لشخصية ايتانا الخيالية (متحف الدولة . برلين)



(شكل ١٦) رأس تمثال الملك حامورابى صنع من حجر الديوريت
(متحف اللوفر)

العصر البابلى الأول

استولى العلاميون الذين يقيمون فى منطقة الخليج الفارسى على مدينتى « لارسا وأسن » السومريتين بعد سقوط الدولة السومرية الثانية ، غير أنهم لم يتمتعوا طويلا بهذا الانتصار حيث تمكنت قبائل من الجنس السامى تسكن المدن الشمالية الغربية من طرد العلاميين ، وأسس زعيمهم « حامورابى » الدولة البابلية الأولى وجعل عاصمة « بابل » . واتسعت حدود دولته شمالا وجنوبا فكون إمبراطورية كبيرة شملت مدينة « آشور » فى الشمال « ومارى » فى الغرب « وسومر » وأكاد « وعلام » فى الجنوب .

وبالرغم من شهرة حامورابى سياسيا وحربيا واعتبار عصره العصر الذهبى لحضارة بلاد النهرين – نلاحظ أن الآثار الفنية من تلك الفترة لا تذكر : فمن الآثار القليلة رأس من حجر الديوريت الداكن (ش ١٦) يرجح أنه يخص حامورابى وهو فى سن متقدمة . ويدل التعبير المنعكس على الوجه على الشعور بالتعب من كثرة الحروب التى خاضها الملك .

وربما عرف هذا الرأس بمقارنته بصورة الملك المنقوشة على لوحة

تذكارية من حجر البازلت نقش عليها نصوص القوانين التى تضمن العدل والرخاء للشعب البابلى ويظهر الملك فى أعلى اللوحة ماثلا أمام الإله شاماش (إله الشمس) منبع القوانين .

ونلاحظ أن نحت الأشخاص عال لدرجة يخيل لنا أنها توشك أن تبرز من الأرضية ، وفى أسفل الصورة سجلت القوانين بحروف مسمارية

ومن القطع البابلية القليلة تمثال من البرنز يصور حامورابى راكعا أمام تمثال الإلة « أمورو » الذى نقش اسمه على قاعدة التمثال .

ومن تماثيل الآلهة عثر على تمثال من البرنز فى مدينة أشالى يصور إلها ذا أربعة وجوه يرتكز بإحدى قدميه على كبش .

ويتضح من آثار مدينة (مارى) التى تمتعت بحكم مستقل لفترة أن الفن فيها كان متأثرا بالطابع السومرى ، ويؤيد ذلك تمثال الحاكم « بوزو إشتار » الذى يذكرنا بتماثيل جوديا السومرى ؛ كما يظهر التأثير السومرى واضحا أيضا فى تمثال إلهة تحمل بين يديها إناء يوضع فيه عادة السائل المقدس .

الدولة الآشورية - الدولة البابلية الجديدة

تمتعت المدن الآشورية التى فى الجزء الشمالى من بلاد النهرين بحكم ذاتى تحت ولاية الدول التى سيطرت على حكم بلاد النهرين ، فخضعت للأكاديين والسومريين والبابليين ، إلا أن الآشوريين تمكنوا من الاستقلال التام عن حكم الدولة البابلية بعد موت الملك « حامورابى » كما حارب « آشور أوبالط » (١٣٦٦ - ١٣٣٠ ق . م) الميتانيين المسيطرين على شمالى منطقتهم وانتصر عليهم .

وصارت آشور قوة كبيرة من منطقة بلاد النهرين مكنتها من التدخل فى شئون بابل ، فتمكن الملك « توكلت - إينورتا » (١٢٥٠ - ١٢١٠ ق . م) من هزيمة الكاسيين الذين كانوا قد انفردوا بحكم بابل بعد تزايد عددهم فى المنطقة . وأصبحت بذلك دولة الآشوريين هى القوة العظمى فى بلاد النهرين ، وامتد نفوذهم خارج حدود بلاد النهرين فى عهد الملك « تجلاش بلاسر » الأول (١١١٦ - ١٠٧٧ ق . م) ، إلا أن هذه الانتصارات الباهرة تلتها فترة كان حكامها ضعافاً مما شجع « الآراميين » على الاستيلاء على بعض ممتلكات الإمبراطورية . ويعتبر هذا الهجوم نهاية الدولة الآشورية القديمة ، حيث

استقلت بابل أيضا عن الدولة الآشورية فى حوالى عام ١٠٠٠ ق . م .

غير أن الدولة تميزت بحكام أقوياء منذ عام ٩٠٠ ق . م ، فبدءوا يسترجعون مافقدوه فى حملات حربية متتالية . فاستولى « تجلاث بيلاير » الثالث (٧٤٦ – ٧٢٧ ق . م) على بابل فى عام ٧٢٩ ق . م وأغار على دمشق عاصمة الآراميين فى عام ٧٢٢ ق . م . واستولى خليفته « سارجون الثانى » (٧٢٢ – ٧٠٥ ق . م) على « سامريا » عام (٧٢١ ق . م) وسقطت بابل مرة ثانية عام ٦٨٩ ق . م ، ودمرت على يد « سنخريب » (٧٠٥ – ٦٨١) ق . م ، واستولى « إسارحادون » (٦٨١ – ٦٦٨) على الجزء الشمالى من مصر فى عام ٦٧٠ق .م .

استمرت الحروب قائمة بين الآشوريين وبين دولة علام التى غرب الجزء الجنوبى من بلاد النهرين فى عهد الملك « آشوربانيبال الثالث » (٦٦٨ – ٦٢٦) ق . م ، وتمكن الآشوريون من الانتصار عليهم ، وتدمير العاصمة « سوسا » . وقتل ملكهم فى عام ٦٤٠ ق . م ، غير أن هذا الانتصار لم يدم حيث ضعفت الدولة من كثرة إغارة قبائل إيرانية « السيثيين » و « الميديين » عليها ، وسقطت العاصمة نينوى عام ٦١٢ ق . م بعد أن تحالف ضدها الميديون والكلدانيون ، وانتهت الإمبراطورية الآشورية بالزوال مثلما انتهت الإمبراطوريات السابقة ، وتسمى هذه الفترة بالدولة الآشورية الحديثة .

انتهز حاكم بابل المعين من لدن الآشوريين فرصة ضعف الدولة

الآشورية ، فاستقل بالحكم فى عام ٦٢٥ ق . م ، وتمكن هذا الحاكم البابلى (نبوپولاسار) أو « بختنصر » من تأسيس دولة قضت على الآشوريين بمعاونة الميديين ، وكون مملكة بابل الجديدة بعد اقتسام الدولة الآشورية بينه وبين ملك ميديا .

أضنت الدولة البابلية الجديدة مركز الاشوريين فى حكم بلاد النهرين ، وازداد نفوذ هذه الدولة فى فترة حكم الملك « نبوخذنصر » الثانى (٦٠٤ – ٥٨١) ق . م الذى استرجع ممتلكات الدولة الآشورية حتى حدود مصر . ووضع نهاية لدولة يهوذا بعد أن هزمها وهجر الجزء الأعظم من سكانها اليهود إلى بابل .

غير أن الضعف دب فى الدولة فى أواخر عهدها فتمكن الفرس من غزو بابل فى عام ٥٣٩ وانتقلت السيطرة على بلاد النهرين إلى الحكم الأجنبى .

الفن الآشورى

لاحظنا من المقدمة التاريخية أن الآشوريين انشغلوا طيلة فترة حكمهم لبلاد النهرين بالحروب مع جيرانهم بغية السيطرة على المنطقة بقوة السلاح ؛ لذلك لم يكن لديهم الوقت أو الدافع لتطوير ما عرفوه من الفن فى فترة صلاتهم القديمة مع السومريين .

كذلك مرت بلاد النهرين بفترة ركود فنى فى خلال الفترة الطويلة

التى سيطر الكاسيون فيها على بابل : وذلك لأن هذه القبائل عندما تسربت إلى بابل فى فترة حكم حامورابى – لم تكن تتمتع بقدر واف من الحضارة وحتى إذا كانوا استفادوا من التطورات التى بالمنطقة فإنهم لم يتمكنوا من تكملة التقاليد الفنية التى وجدت من قبل .

وتوضح الآثار القليلة التى ترجع إلى الفترة الأولى من حكم الآشوريين أنهم كانوا متأثرين بالتقاليد السومرية ، حيث عثر فى مدينة آشور على آثار زقورة كانت تحمل المعبد الرئيسى فى المدينة إلا أننا نلاحظ بدء ظهور العقيدة الآشورية التى لا تسمح للإنسان بمقابلة الإله فى « هيكل الملك » « توكولتى إينورتا » الأول الذى عثر عليه فى أشور حيث نرى نقشا يصور الملك متقدما ، ثم راكعا أمام مذبح يحمل رمز الإله « نوسكو »

على أن فن الآشوريين المميز يتضح فى عمارة القصور الفخمة التى تباروا فى تشييدها وزخرفتها بنقوش بارزة . واستمر هذا النشاط المعمارى فى عهد الدولة الآشورية الحديثة التى تعددت عواصمها .

وتعددت القصور بتغير مكان العاصمة ، فشيد « آشور ناصربال » (٨٨٥ – ٨٦٠) ق . م مدينة غرد (كلح حاليا) وبنى بها قصرا له ، وشيد « شلمنصر الثالث » (٨٥٩ – ٨٢٧) ق . م قصرا له فى مدينة « بالوات » ، وشيد « سارجون الثانى » مدينة « دور شاروكين » « حزرسباد حاليا » . وشيد « سنخريب » و « آشوربانيبال » قصورا لهما فى مدينة نينوى .

استخدم الآشوريون قوالب الطواب فى تشييد قصورهم على النمط السومرى ، واستخدم الحجر فى تغطية الجزء الأسفل من الجدران الداخلية ، كما بطنوا الجزء الأسفل من جدران المدخل بكتل حجرية توافرت فى المنطقة الشمالية من بلاد النهرين . واستخدم القبو فى الممرات الطويلة ، والعقد فى بعض الفتحات ؛ كما تدل نقوشهم البارزة على أنهم استخدموا أحيانا الأعمدة لزخرفة الوجهات أو البوابات .

واتبع الآشوريون أسلوبا خاصا فى زخرفة جدرانهم الداخلية ، حيث نقشوا الألواح الحجرية بصور للمعارك الحربية التى انتصروا فيها ؛ كما زينوا مداخل قصورهم بأشكال حيوانية ضخمة .

وفى الحقيقة لم يعثر على قصور كاملة للملوك الآشوريين من جراء التدمير الذى لحق بمدنهم بسبب الحروب المتتالية التى خاضوها . ويعتبر ما تبقى من قصر الملك سارجون فى خورسباد من أحسن الأمثلة التى تساعدنا على معرفة الأسس المتبعة فى تشييد القصور الآشورية .

اختار الملك « سارجون » لعاصمته مكانا شمال شرق مدينة نينوى ، وتبلغ مساحة المدينة حوالى خمسة وعشرين فدانا ، وشيد القصر على مساحة مستطيلة فى الجهة الغربية ، وأكمل « سارجون » تشييد عاصمته فى سبع سنوات إلا أنه لم يتمتع بالإقامة فيها إلا عاما واحدا حيث توفى بعد ذلك . ويحيط بالقصر سور عال مدعم بأبراج عالية ، كما أن بالقصر بوابات ذات عقود مستديرة تحيط بها أبراج شامخة للحراسة ، ولقد

ألحقت بالقصر الملكى الزقورة التى تحمل المعبد .

ويزخرف مداخل القصر نحت شديد البروز لحيوانات مجنحة ذات رءوس آدمية (ش ١٧) تبرز من الكتل الحجرية القائمة بالمدخل . ولقد شكلت هذه الحيوانات على هيئة ثيران أو أسود . ويبدو أن الآشوريين قد نقلوا هذه الفكرة عن الحيثيين المقيمين بالقرب منهم فى جنوبى سوريا .

ومن الواضح أن الآشوريين قد أرادوا من نحت هذه المخلوقات الضخمة بمداخل قصورهم التأثير على الزائرين وإشعارهم بعظمة الملوك الآشوريين .

وإذا ترك الزائر هذا المدخل يرى على الألواح التى خلف الثيران المجنحة نقشا بارزا يصور مخلوقات آدمية مجنحة أو آدمية مجنحة برءوس طيور وترتدى هذه المخلوقات الخيالية زى الملوك ، ويعتنى الفنان بتوضيح التفاصيل الدقيقة التى فى الزى .

ويتضح أسلوب الفن الآشورى المميز فى النقوش البارزة على ألواح المرمر التى تغطى الجزء الأسفل من الجدران الداخلية ، فتصور الغزوات الحربية التى انتصر فيها الآشوريون فى تسلسل تاريخى مع توضيح كل غزوة بالتفصيل . ويوضح تاريخ الحملات كتابات منقوشة فى أعلى الألواح . وإذا كثرت الغزوات فى عهد ملك من الملوك توضع الصور المنقوشة فى إطارين بعضها فوق بعض ، وتنقش الكتابة بين هذين الإطارين . ويبلغ ارتفاع الألواح فى قصر الملك « آشور ناصربال » حوالى مترين



(شكل ١٧) ثور مجنح برأس آدمى - نحت بارز عثر عليه فى مدخل
مصر مدينة غرد (المتحف البريطانى)

ونصف المتر ، وفى قصر الملك « سارجون » ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريبا .

وترجع أهمية هذا الأسلوب الآشورى فى كون هذه المناظر تمثل أطول مساحة قصصية عرفت فى تاريخ الشرق الأوسط :

فالمصريون استخدموا جدران المعابد لنقش منظر يوضح معركة حربية واحدة ، كذلك فعل السومريون والأكاديون على لوحاتهم التذكارية ، إلا أن الآشوريين اتبعوا أسلوبا مبتكرا ؛ إذ جعلوا من تسجيل تفاصيل الأحداث الحربية فى شريط مصور ممتد ملىء بالسرد القصصى فنا تاريخيا زخرفيا مشوقا تسهل متابعته .

ونلاحظ أن المثول أمام الآلهة الذى كان يسجل بكثرة فى العهود المختلفة فى بلاد النهرين قد اختفى كلية فى النقوش الآشورية . وقد يرمز للإله المفضل آشور برمز يأخذ مكانا غير ظاهر فى الصورة .

بدأ ظهور هذا الفن فى عهد الملك « آشور ناصر بال » ، ونضج فى عهد « سارجون » ، وبلغ القمة الفنية فى عهد « آشور بانيبال » ، ويتضح من نقوش قصر الملك « آشور ناصر بال » فى نمرد أن الفنان لا يهتم بمراعاة قواعد المنظور ، حيث نلاحظ فى منظر يسجل انتصار الآشوريين فى معركة لا شيش أن الجنود الذين يعبرون مجرى مائيا بعد انهزامهم يسبحون الواحد فوق الآخر ؛ كما تظهر الخلفية التى يقف فيها الآشوريون على هيئة خط .



(شكل ١٨) الملك ناشور ناصر بال يصطاد الأسود نقش جدارى عثر عليه فى مدينة (غرد) - (المتحف البريطانى)

وتوضح النقوش الآشورية شجاعة الملوك الآشوريين فى اصطياد الأسود : فنرى من القصر نفسه الملك « آشور ناصر بال » مستقلا عربته يصطاد الأسود (ش١٨) ويوضح شجاعة الملك التفاته منه إلى الخلف ، ليصوب سهما يقضى به على الأسد الجريح المهاجم له .

ويقل ظهور المناظر الحربية فى قصر الملك سارجون ، وتظهر الأشخاص بحجم كبير ، ويوضح ذلك نقش يصور رجلين يقدمان الهدايا . وتلاحظ فى هذه الصور عناية الفنان الفائقة فى تسجيل تفاصيل الزى الآشورى ، ويوضح مكان العضلات بخطوط بارزة .

تطورت أساليب نقش الموضوعات تطورا كبيرا فى عهد الملك سنخريب حيث تلاحظ أن الفنان قد تخطى الجزء الأكبر من اللوح بتفاصيل دقيقة لم تكن تظهر من قبل ، ووزع الشخصيات والعناصر التى فى قصته فى تصميم متناسق . ويوضح ذلك منظر يصور جنود الملك سنخريب يطاردون الأعداء الهاربين فى الجزر التى فى منطقة الأحراج

ولرغبة الفنان فى ملء الألواح العالية بأشخاص كثيرة اضطر إلى تصغير حجمهم ، وتتميز هذه الأشخاص بالحيوية والحركة . ومما يساعد على ربط هذه العناصر الخطوط المتموجة التى تعبر عن المياه .

على أن فن النحت البارز يبلغ القمة فى نقوش قصر الملك « آشور بانيبال » الذى شيده فى نينوى ؛ حيث ازدادت العنايه بتسجيل الحركات المختلفة ؛ كما أصبحت الأشكال المنقوشة أكثر وضوحا ،

وظهرت الخطوط المائلة فى تصميم الصورة لأول مرة . ويوضح ذلك نقش يصور انتصار الجيوش الآشورية على مدينة « حمانو » : فنرى الجنود يهاجمون المدينة ، ثم يدمرونها ، ويتركونها تشتعل فيها النيران عائدين بما حملوا من غنائم .

على أن أجمل ما سجله الفنان فى نقوش هذا العصر كان صيد الحيوانات . وتعتبر هذه المجموعة أحسن عمل فنى قام به الفنان الآشورى ؛ إذ تميزت نقوش الحيوانات المطاردة سواء أكانت أسودا أم جيادا أم غزلاناً بدراسة دقيقة من الفنان للخصائص الذاتية لهذه الحيوانات ؛ كما دلت على اهتمامه بتسجيل الانفعالات المختلفة المنطبعة على وجوه هذه الحيوانات . ويوضح ذلك (لوحة) أنثى الأسد الجريحة التى أصابتها السهام فشلت نصفها الخلفى ، فبدأت تزحف إلى الأمام وهى تصرخ من الألم !

ولقد اختفى هذا الفن الملكى الآشورى الذى وصل إلى القمة فى نهاية حكم الدولة الآشورية بمجرد سقوط العاصمة نينوى .

وبالرغم من سيادة فن النقش البارز فى القصور الآشورية فإننا نجد أنهم استخدموا الألوان فى زخرفة جدران بعض قاعاتهم ، وعثر على أمثلة منها فى قصر الملك « سارجون » بمدينة « خورسباد » وفى قصر خاص بحاكم مدينة « تل بارسب » ، كما وجد فى قصر خورسباد تصميم زخرفى تظهر به ثلاثة إطارات أفقية بها زخارف متكررة لمخلوقات مجنحة



(شكل ١٩) تمثال الملك آشور ناصر بال الثانى - عثر عليه فى مدينة نمرد - (المتحف البريطانى)

وثيران . وتعلو الإطارات الثلاثة صورة ملونة يظهر فيها الملك ماثلا أمام الإله ! وهذا موضوع يندر وجوده فى النقوش الآشورية .

كذلك عرف الآشوريون استخدام البلاط الخزفى منذ عهد الملك « آشور ناصر بال » ، كما عثر على بلاط خزفى أزرق فى مبانى الزقورة بمدينة خورسباد وبلاط خزفى أزرق به عناصر ملونة باللون الأصفر فى القصر الملكى .

ولكثرة انشغال النحاتين بنقش القصور الملكية نجد أن فن النحت الكامل كان نادرا ، وتدل التماثيل القليلة التى عثر عليها فى المواقع الآشورية على أنه كان فنا بسيطا .

ومن هذه الأمثلة النادرة تمثال الملك آشور ناصر بال (ش ١٩) . الذى يصوره عارى الرأس ممسكا بيديه صولجان الحكم وسلاحا ذا نهاية مقوسة . وتلاحظ أن الملك يظهر فى وضع مشدود لا تعبير فيه ولا حركة .

الفن البابلي الجديد

كانت بابل فى عهد الملك « نبوخذ نصر » تعد أعظم مدينة فى العالم القديم ، وتدل الآثار القليلة التى عثر عليها فى موقع المدينة على أنها كانت محاطة بسورين غليظين محصنين بأبراج عالية ، وكان للمدينة عدة بوابات سميت بأسماء الآلهة البابلية ، وكان أشهرها بوابة إشتار .

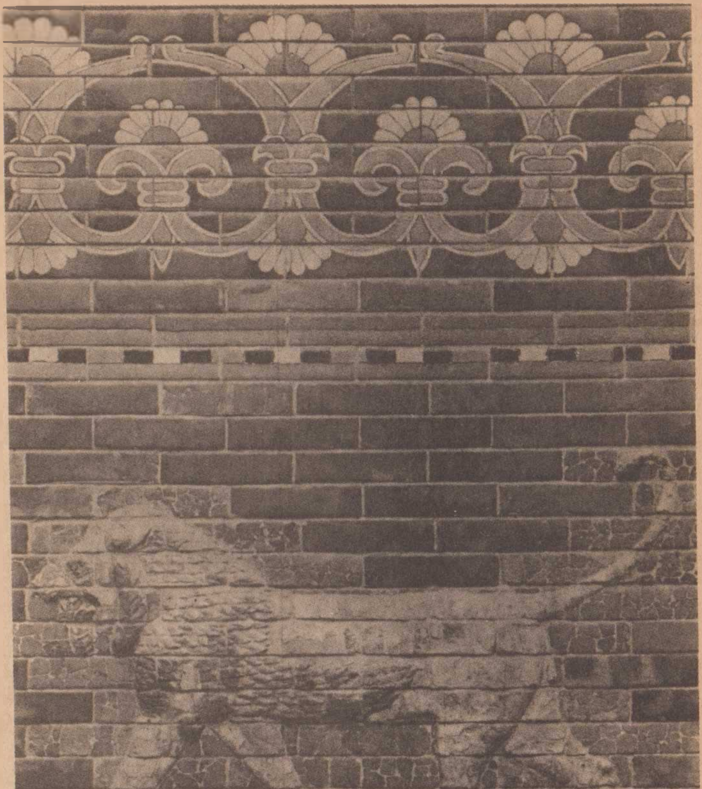
وقصر الملك فى منتصف جدار المدينة الشمالى ، ويحده من الجهتين نهر الفرات والطريق الرئيسى للمدينة الذى تمر منه المواكب الدينية ، وفى نهاية الطريق على اليمين أقيم معبد إله المدينة « ماردوك » وفى الجهة الشمالية منه زقورة ماردوك التى عرفت باسم برج بابل ، ولقد بلغ عدد المصاطب فى زقورة بابل سبع مصاطب ، وذاع صيتها فى العالم القديم .

وذكر الرحالة « هيرودت » الذى زار بابل أن المصاطب كانت مشيدة بالآجر ، أما جدران المعبد فكانت مغطاة بالطوب الخزفى الملون ، كما غطيت جدران غرفة الإله وأخشاب السقف بالذهب والفضة ، وصنع تمثال الإله من الذهب .

ومن الملاحظ أن البابليين قد اعتمدوا على الطوب الخزفى الملون فى تزيين جدرانهم بالألوان وطوروا ماتعلموه من الآشوريين : فقدم لنا الطوب الخزفى وخاصة الذى فى بوابة إشتار زخارف متعددة الألوان . فتزخرف الأرضية الزرقاء وحدات من الحيوانات الملونة بألوان مختلفة موزعة فى صفوف أفقية . وتظهر فى أحد الصفوف وحدات متكررة للثور المخصص للإله « آداد » . وتلاحظ أن الجسم لونه أصفر بنى أما القرون والحوافر وأهداب الذيل وشعر ظهره فلونها أخضر فى زرقة .

ويظهر الحيوان الخرافى الذى يمتطيه الإله « ماردوك » متكرراً فى صف آخر .

ويتميز هذا الحيوان برقبة طويلة ورأس يشبه الثعبان وله قرون ،



(شكل ٢٠) جزء من جدار قاعة العرش فى قصر مدينة بابل – وهو مغطى بطوب من الخزف الملون .. (متحف الدولة . برلين)

ويمتد لسانه إلى الخارج ؛ كما شكلت أقدامه الأمامية كأقدام الأسود والخلفية كأقدام النسر .

ويحيط بهذه الزخارف إفريز ملون بالأصفر تتخلله وحدات هندسية ، وعندما يزدوج هذا الإفريز فى بعض المواقع تلاحظ وجود زهيرات موزعة بين الإفريزين .

واستخدم الطوب الخزفى أيضا فى كسوة جدران الطريق المؤدى إلى بوابة إشتار . وتزخرف هذه الجدران وحدات من الأسود الكاسرة ؛ كذلك تكرر ظهور الأسود فى زخارف واجهة مدخل قاعة العرش (ش ٢٠) ويلاحظ فى هذا التصميم وحدات على هيئة أربعة أعمدة نخيلية الشكل ، تربطها فروع من نبات اللوتس . ومن الجائز أن الفنان تأثر بالأعمدة النخيلية التى كانت تزين وجهة قاعة الحريم فى خورسباد .

رقم الإيداع		١٩٨٤ / ٣٤٩٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠١-٠٣٧٧-٢	ISBN

١ / ٨٠ / ١٤٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)